النزعة الجهادية لطلبة العلم وحملة القرآن الكريم في منطقة معسكر خلال العهد العثماني

د. بن داهة عدة
قسم التاريخ
المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي معسكر

مقدمة

غاية هذا العرض السريع هو تقديم صورة موجزة عن أثر التعليم القرآني، وعلوم الدين في تغذية الروح الجهادية لدى طلبة العلم وحملة القرآن الكريم في منطقة معسكر خلال حكم الباي محمد بن عثمان الكبير (هو محمد بن عثمان الكبير الكردي الملقب بالأكحل لسمرته، وبالكبير إكراما له عندما فتح وهران؛ من مواليد مليانة فيما بين 1739- 1745، كان غزير العلم ومن المهتمين بالأدب، والشعر، والعلوم الشرعية، والطب والفنون العسكرية، والسياسية؛ يجيد الحديث باللغتين الإيطالية والفرنسية؛ تولى قيادة قبائل فليتة (1765- 1769)؛ ثم قائدا لزمورة، ثم خليفة لبايلك الغرب الجزائري (1769- 1779)؛ ثم باي بايلك الغرب (1779- 1797)؛ وذلك بالحديث عن استقطاب مدينة معسكر – بعد استقرار الأتراك بها واتخاذها عاصمة لبايلك الغرب الجزائري – لعدد كبير من العلماء، والفقهاء، وقادة الجهاد، وكبار المقاومين ضد الاحتلال الأسباني لوهران؛ وتأليف الطبقة المثقفة بهذه المدينة لما عُرف «بجيش الطُّلبة» الذي كان له الدور الحاسم في التحرير الثاني والنهائي لمدينة وهران سنة 1792م (في سنة 1708 تمكن باي معسكر مصطفى بن يوسف المدعو بوشلاغم من تحرير وهران وهو التحرير الأول؛ أما التحرير الثاني والنهائي فقد تم على يد باي معسكر محمد بن عثمان الكبير المدعم من طرف جيش الطُّلبة وذلك سنة 1792م).

الدور الجهادي للمؤسسات التعليمية والدينية

اشتهرت منطقة معسكر في آخر العهد العثماني بكثرة الزوايا التي كان عددها يفوق عدد المساجد.ومع أن لكل من المسجد، والزاوية، والرباط، والمدرسة (المعهد) خصوصياته، فإن المدرسة المحمدية في معسكر، وزاوية القيطنة في وادي الحمام كانت كل منها تجمع في آن واحد بين المدرسة والزاوية والرباط.

المدرسة المحمدية:

أسسها محمد بن عثمان الكبير إلى جانب الجامع الأعظم على شاكلة المدرسة البوعنانية بفاس، والمدرسة المستنصرية والبياشية بتونس، والقشاشية في الجزائر(سعد الله،أ. ج1 ،ط1، 1998: 273) لتكون قاعدة لنشر التعليم في المنطقة؛ وجهزها بجميع الوسائل التعليمية من مكتبة، وقاعات للمطالعة والدروس، ومبيت للطلبة الداخليين، إلى جانب مطبخ وفرن خدمة للطلبة. ولينافس بها القرويين في فاس، والزيتونة في تونس.

ومع أن المدرسة المحمدية لم تكن جامعة كالأزهر، أو القرويين أو الزيتونة غير أن الدروس فيها كانت تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي في دمشق والحرمين الشريفين لتنوع الدروس فيها.

تولى التدريس بها أكابر علماء المنطقة من أمثال الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي (جاكر،ل. 2003: 52- 54) الذي ولاه الباي تسيير شؤون المدرسة ثم رئاسة الرباط، وقاضي القضاه السيد الطاهر بن حواء، وكاتبه الخاص السيد محمد بن المصطفى بن زرفة الدحاوي (لقب بهذا الاسم نسبة إلى مرضعته، ولم يترجم له صاحب كتاب الياقوتة الوهاجة العربي المشرفي بل اكتفى بأنه من أولاد سيدي دحو، وهي عائلة إدريسية انتقلت من الجزيرة الخضراء إلى معسكر) (البوعبدلي.الأصالة، عدد 13، 1973: 27)، وهؤلاء جميعا وعوا القرآن الكريم ولقنوا آياته الشريفة لطلبتهم.

وقد تحولت المدرسة المحمدية التي كانت قاعدة العلم فيها هي حفظ القرآن الكريم إلى رباط أيام الفتح الوهراني، حيث خرج علماؤها للجهاد، فأقاموا عند جبل المائدة قرب وهران للتضييق على الأسبان، وكانوا هناك يدرسون، ويتلون القرآن الكريم، ويحاربون(سعد الله،أ. ج1، 1998: 267).

ويفهم من هذا أن المدرسة المحمدية بانتقال طلابها إلى جبل المائدة قد تحولت إلى قلعة عسكرية، وزاوية، ومدرسة متنقلة.

تحدث أحمد بن سحنون الراشدي بمزيد من التفصيل والتوضيح عن هذه المدرسة ووصفها وصفا مفصلا في مؤلفه «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» حيث قال في شأنها «كاد العلم ينفجر من جوانبها» (الراشدي، أ. 1973: 127)، كما تحدث السيد محمد بن المصطفى بن زرفة الدحاوي عن طلبتها في معرض حديثة عن رباط وهران في مؤلفه «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» (حساني، م. 2003: 87).

زاوية القيطنة:

أسسها الشيخ بن مصطفى بن مختار جد الأمير عبد القادر بقرية القيطنة على الضفة اليسرى لوادي الحمام بين بوحنيفية وحسين غرب معسكر بحوالي 20 كيلومتر، خلال

العهد العثماني بمكان يدعى «شعبة غار الطُّلبة»، وأوجد بها مسجدا لأداء الصلوات الخمس، ومدرسة لتلقين العلوم، وخلف المسجد رفع مبنى للزاوية هو أوسع بكثير من المسجد، وقد مكث الأمير عبد القادر بهذه الزاوية إلى غاية إعلانه أميرا للبلاد في 1832/11/27م؛ وقد تم لجيش الاحتلال الفرنسي أن أضرم النيران في زاوية القيطنة سنة 1841 بأمر من الجنرال بيجو (Rapport du s/préfet de Mascara à Mr le préfet d'Oran. le 06/08/1946, Signé: Mesnard).

ومن هذه الزاوية التي كانت مقصدا للعلماء، والمرابطين والشخصيات المعروفة في المنطقة، (العربي، إ. ط2، 1982: 37) انطلق الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وفيها حفظ الأمير عبد القادر القرآن الكريم، وتعلم مبادئ اللغة والدين.

تولى التدريس في هذه الزاوية أحد أكابر علماء عصره، وهو الشيخ عبد القادر المشرفي صاحب كتاب «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر»؛ ومنها تخرج علماء كبار ومجاهدون من أمثال: الأمير عبد القادر (1808- 1883)، ومحمد مرتضى الحسن الجزائري (1827- 1901)، ومحي الدين بن الأمير عبد القادر (1843- 1918)، وأحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسني (1833- 1902).

لقد كانت زاوية القيطنة مؤسسة اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وعسكرية، تجمع في آن واحد بين المسجد، والمحكمة، والملجأ، والمركز العسكري، وهي بهذا الشكل «منبعا للثقافة والعلم، وخلية للسياسة، والتوجيه الثوري، ورباطا للجهاد المستمر ضد العدوان الخارجي»، وهكذا كانت الزوايا والكتاتيب القرآنية أول من قاوم الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

ولم تكن المدرسة المحمدية، وزاوية القيطنة في منطقة بني شقران وسهل غريس هي التي اهتمت لوحدها بتحفيظ القرآن الكريم، وبتعليم العلوم والحث على الجهاد؛ فقد كان إلى جانبها عشرات المدارس والزوايا، وعشرات الصلحاء عاكفون على تحصيل القرآن والعلوم للصبيان وللكبار بما في ذلك الدعوة لجهاد الأسبان حتى قيل عن هؤلاء الصلحاء في غريس «كل دومة بوالي صالح» (بوعزيز،ي. ج1، ط1، 1995: 228-229).

مساهمة طلبة العلم وحملة القرآن في الحملات الجهاية لتحرير وهران:

في هذا الشأن يقول أبو زيد عبد الرحمن الجامعي صاحب كتاب «فتح وهران» إن طلبة العلم وحملة القرآن كانوا أشد الناس مسارعة لإجابة دعاء السلطان لهذا الجهاد

المبارك» (الجامعي، م. 2003: 87) تركوا المدارس والزوايا وتوجهوا إلى وهران للمرابطة وللمشاركة في تحرير المدينة إلى جانب شيوخهم، فكانوا يزاولون الدراسة ويقومون بأعمال حربية، وربطوا الجهاد بغزوات الرسول صلى الله عليم وسلم لأنهم كانوا لا يفرقون بين جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لكفار قريش عن جهاد مسلمي الجزائر ضد الأسبان(حساني، م. 2003:150).

ونستدل على الدور البارز الذي لعبه طلبة العلم وحملة القرآن في فتح وهران بقول ابن زرفة الدحاوي:«وأثخن الطلبة في النصارى إثخانا عظيما أحلَّ به على النصارى النكال» (حساني، م. 2003: 152) وتلك هي شهادة حية وتقييم لنشاط الطلبة في حرب الجزائر ضد الأسبان أدلى بهما كاتب شارك هو بنفسه إلى جانب هؤلاء الطلبة في فتح وهران، وفيه دحض لمن استهتر بهم كما سيأتي لاحقا.

وفي رباط وهران التقي الطلبة من مختلف مدارس المنطقة وزواياها (المدرسة المحمدية، مدرسة الشيخ بوراس، زاوية الكرط، زاوية القيطنة) ومن جميع نواحي غريس.

ويتفق بن سحنون الراشدي مع الجامعي في أن «أول الناس إجابة واسبقهم للإصابة طلبة المدرسة المحمدية، وسكان روضة العبقرية، والفقيهان العالمان العلامة أبو المعاري سيدي أبو عبد الله الجيلالي، وذوي المكارم الأثيرة والفتاوى الطاهر بن حواء، فأمرهم سيدنا الأمير على جمع الطلبة المرابطين»(حساني، م. 2003: 329).

وهكذا أنشأ الباي جيشا سماه «جيش الطُّلبة»، أسند مهمته للعلماء المجاهدين؛ ففي سنة 1791 عين محمد بن عبد الله الجيلالي المشار إليه أعلاه على رأس رباط إيفري قرب وهران، وجعل له نوابا يستعين بهم، هم:

- محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي، الذي كلفه الباي بتدوين كل الأحداث المرتبطة بتحرير وهران.

الشيخ الطاهر بن حواء (قاضي معسكر) –المتقدم ذكره- ، الذي استشهد في حملة 1791 على وهران.

محمد علي أبو طالب المازوني (عالم مازونة)، الذي وصل إلى معسكر على رأس 200 طالب توجه بهم فيما بعد إلى وهران.

- أحمد محمد بن علي بن سحنون الراشدي (كاتب الباي) (Zaoui, D. carrefour, 2/04/2008:11).

وللعلم فإن هؤلاء جميعا كانوا من الأعيان ومن أكابر العلماء ممن لا فرق عندهم بين العلم والحسام. وقد بات الطلبة ليلة خروجهم بوادي الحمام، فأكرمهم أهله بسمين

اللحم وخاص الطعام، والبعض ذبح لهم الدجاج؛ ومنه نزلوا بجبل مرجاجو –مرورا بسيق وتليلات ثم وادي إيفري- فاتخذوا من كهوف جبل مرجاجو مساكن لهم وبيوتا للتدريس وقراءة القرآن ليلا ونهارا، تسمع أصواتهم من بعيد كأنها خرير أنهار أو رياح بحار (حساني، م. 2003:334 - 335).

وقبل خروج الطلبة لهذا الرباط، اختار الباي ستة منهم، دعمهم بالأسلحة وبالأموال – أعطاهم مكاحل طوالا، جزائرية، وستة ريال لكل واحد منهم- وبعث بهم في مهمة دعائية، لاستجلاب الطلبة، وترغيبهم في الجهاد والرباط، فوصلوا إلى الرباط وعددهم 500 طالب يتنافسون على الجهاد، ممن بايعوا الباي على الموت (الراشدي، أ. 1973:275- 276).

ظل الطلبة وهم في الرباط مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو، لا يتركون ذلك إلا في أوقات القتال، وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز لا يفترون عنه إلا الساعتين من أوقات النوم... فكانوا كما قيل في سلفهم الصالح رضي الله عنهم «رهبان بالليل أسود بالنهار» (البوعبدلي.م، 1973: 29).

وهنا تبقى النقطة البارزة التي يمكن التساؤل عنها وهي سبب لجوء الباي إلى الطلبة مع أن للدولة مجندين في الجيش النظامي.

أما ثاني نقطة قد يثار الحديث حولها، فتتمثل في استجابة الطلبة العفوية والسريعة لنداء الجهاد، وحمل السلاح ضد الغزاة الأسبان.

فإذا كانت أسباب لجوء الباي إلى الطلبة تعزى إلى قلة عدد المجندين في الجيش النظامي، فإن الاستجابة الغاضبة والسريعة للطلبة من أبناء المنطقة ضد الغزاة الأسبان قد تكون ردا منطقيا على:

أولا: النداءات العلنية للاسبان في خوض حرب صليبية لغرض تحويل الجزائر إلى المسيحية، وهذا ما تؤكده الحملات العسكرية التي شنها الأسبان في فترات متلاحقة باسم الملوك الكاتوليكيين، وبمباركة من رجال الدين المسيحيين، وعلى رأسهم خسيمينيس دوسيسنبروس "Ximines de cisneros" أسقف طليطلة والوصي على عرش اسبانيا في 1509، وإقدامهم على تمسيح أطفال الجزائر الذين وقعوا في الأسر أثناء الغزوات.

ثانيا: الغارات التي شنها الأسبان في منتصف القرن 16م على تيفرورة، والكرط التي خربوا فيها مكتبة المشارف، وفروحة وأرض الشيخ سيدي محمد بن يحي- حيث

استشهد أحد الأجواد من أهل غريس وهو السيد العروسي الذي أخذ الأسبان رأسه وفرسه إلى وهران- ، وتاغية، ونسموط، والبنيان (المزاري، ج1، 1990: 219).

من دون شك فإن ما اقترفه الأسبان من جرائم ومنكرات في حق الجزائريين قد ظل عالقا في أذهانهم، إلى حدٍّ أنهم أصبحوا يفيضون حقدا وغليانا على الغزاة الأسبان، ومعظمهم يدرك ضرورة التصدي لهم وطردهم من الجزائر، ومعنى هذا أنهم كانوا يحملون خميرة الجهاد ومستعدين لتلبية الدعوة الجهادية في أية لحظة ومهيئين لها نفسيا.

ويجيب بن زرفة الدحاوي الذين شككوا في القدرات القتالية للطلبة واستخفوا بهم على اعتبار أنهم لم يحملوا السلاح من قبل، وأن هؤلاء تنقصهم الكفاية في التدريب العسكري، وأنهم لا يعرفون سوى حمل القلم والقرطاس بقوله:«كان الباي يدرك ذلك جيدا، لكنه أبى إلا أن يكون فتح وهران على يد الصلحاء من طلبة وعلماء تبركا بأهل العلم لفتح الأقفال المستعصية، وكان يعرف إخلاصهم النية لوجه الله لا لمغانم يأخذونها» (الدحاوي، م. 2003: 328) أي أن مشاركة العلماء والطلبة في الحرب ضد الأسبان لم يكن الدافع لها الحاجة والتعطش للغنائم. وقد أكدت نتائج الحرب أن الإيمان بالقضية قد يكفي للتعويض عن نقص الخبرة القتالية وعن النقص في المعدات الحربية.

ولعل جهود الباي لتوفير ما يحتاجه الطلبة في رباطهم كان أحد أهم الأسباب الرئيسية لتحقيق النصر على الأسبان، حيث تحمل الباي محمد بن عثمان الكبير على عاتقه تكاليف الرباطين الذين أقامهما الطلبة في كل من جبل المايدة وإيفري.

ويقول ابن سحنون الراشدي وكان يحتمل من غلظتهم وجفوتهم ما لا يتحمله أحد من أحب أولاده (الراشدي. 1973: 235) مما يدل على العلاقة الوطيدة والحميمة بين الباي وطلبة العلم.

لقد وفر الباي للطلبة المرابطين كل سبيل الراحة، وما يحتاجون إليه من مواد غذائية، وأسلحة، وسعيا منه لتحقيق ذلك عطل الأسواق من مينا (قرب غليزان) إلى أحواز تلمسان؛ وجعلها قبالة إيفري ليتمكن الطلبة من شراء ما يحتاجونه (الراشدي. 1973: 247). كان يتوجه لهم بالأطعمة كالسمن، والزيت، والفواكه، ومن الأنعام الشاة، والبقر، وكذا الدراهم لشراء الصابون والنعال، وكان الأمناء يوزعون شهريا هذه المواد على الطلبة بالقسط.

ولما كثر الطلبة بالرباط وُزعوا إلى دواوين فاق عددها المائة ديوان، لكل منه أربعون صاعًا من القمح وخمسة وعشرون أخرى إضافية، تكلف الباي بطحنها مقابل خصم

ريال من نفقة كل ديوان، كما بنى لهم ثلاثة مطاحن في وادي مسرغين (الراشدي.1973: 235).

وصرف الباي جهوده لإصلاح الطرق التي تمر بها العربات، وحتى يكون النصر حليفه اهتم بجمع البارود والسلاح والرصاص وكور المدافع (المزاري. 1990: 266-267)، كما أنه إلى جانب الأسلحة وزع على الطلبة نحو ألف سيف، وعندما طلبوا المدد زودهم بثمانين مكحلة، ووجه إلى جبل طارق كلا من ابن هطال، وابن مخلوف فجلبا مائتين وخمسين قنطارا من البارود إلى جانب الآلات الحربية (الراشدي، 1973: 247).

وقد لا تكون هناك حاجة أكثر من ذلك للبرهان على أن الباي كانت له رؤية واضحة الأبعاد حين اختار طلبة العلم وحملة القرآن الكريم لفتح وهران، وذلك بطبيعة الحال بعد أن وفر لهم إمكانيات النصر، وتمكن من التعرف أن حماسة قتال الأسبان قد بلغت لديهم ذروتها، والنتائج الإيجابية المحققة في ميدان المعركة تؤكد ذلك.

كما أن العلاقة بين العلماء والطلبة لعبت هي الأخرى دورا حاسما في رفع معنويات الطلبة. وقد يكون من المناسب هنا التمييز بين حالتين من العلاقة الإنسانية فالعلاقة التي كانت تجمع بين العلماء كقادة وطلبتهم غير العلاقة التي تربط عادة بين الحكام والمحكومين –أو القادة العسكريين وجنودهم - .

لقد كان على رأس هؤلاء الطلبة قادة ليسوا عسكريين نظاميين، وإنما علماء ملهومين، استطاعوا السيطرة على قلوب طلبتهم، وأقنعوهم بأن الحرب ضد الأسبان ستعود عليهم بمكافأة عظيمة ألا وهي جنات الخلد إذا نالوا الشهادة، وأرهبوهم بنار جهنم إذا تخاذلوا.

معنى هذا أن إثارة العلماء لحماس الطلبة ولدت في قلوبهم التصميم على الموت في سبيل الله إلى درجة الخروج للحرب دون سلاح ولا خبرة حربية.

كما يجب الاعتراف قي هذا المجال أن العلماء كانوا يتصدرون «جيش الطلبة» وقد استشهد منهم في ميدان المعركة الطاهر بن حواء، والسنوسي بن السنوسي (أبوراس.، 1990: 73- 74) وهذا ما يؤكد التلاحم الذي كان بين العلماء والطلبة.

خاتمة

في الأخير لا يسعنا إلا أن نقول ما كان للباي أن يفتح وهران ويدخلها منتصرا في يوم 1792/02/28م على رأس جيش من الطُّلبة وهم يحملون المصاحف في أيديهم، لولا الروح الجهادية العالية المستمدة من القرآن الكريم الذي كانت لآياته الشريفة أشد الوقع والتأثير عليهم.

ومن الثابت الذي لاشك فيه مطلقا أن القرآن الكريم الذي تغلغل في نفوس العلماء والطُّلبة يعتبر العامل الأساسي الذي دفع بهم إلى المشاركة طوعا في الحملات الجهادية ضد الأسبان.

وتلك هي صورة حية ونموذجية لجيل المثقفين الجزائريين في ذلك العصر ممن يجب الاقتداء بهم في الذود عن الوطن وحرمة الدين، وصفحة مشرقة عن فضائل طلبة العلم وحملة القرآن الكريم وعن قوة إيمانهم في الدفاع عن الوطن.

المصادر و المراجع:

- البوعبدلي، المهدي. «الرباط والفداء في وهران والقبائل»، الأصالة، السنة 03، العدد 13، صفر، ربيع الأول 1393 هـ/ مارس، أفريل 1973.
- بوعزيز، يحي. أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 01، ط 01، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995.
- جاكر، لحسن. نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمعسكر 1931- 1956. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003.
- الجامعي، أبو زيد عبد الرحمن. فتح وهران، 1708م، تحقيق مختار حساني، جامعة الجزائر: مخبر المخطوطات، 2003.
- الدحاوي، بن زرفة. الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تحقيق مختار حساني، جامعة الجزائر: مخبر المخطوطات، 2003.
- الراشدي، أحمد بن محمد بن علي بن سحنون. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة، مطبعة البعث، 1973.
- سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1998.
- العربي، إسماعيل. المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط02، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1982.
- المزاري، بن عودة (الآغا). طالع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج01، ط01، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1990.

- Zaoui Djillali. «la création de djeïch Tolba», in *carrefour d'Algérie*
- Le sous préfet de Mascara à M[r] le préfet d'Oran. Objet: maison de L'Emir à Mascara, le 06/08/1946, (signé Mesnard) – document d'archives-